في سجن ريا وسكينة

ريا وسكينة — المرأتان المجرمتان اللتان خطفتا كثيرات من النساء . يا لها من افكار وتأملات وميول كانت تتبادر في مخيلتي حينما وقفت في فسحة ضيقة منفرداً في تينك المرأتين وهما في ظلمة السجن المخيف تنتظران حكم القضاء

ريا وسكينة — امرأتان مجرمتان وقد كان من الممكن ان تكونا سيدتين شريفتين . اسأل من تشاء من علماء الفسيولوجيا فيقول لك ان كل ما حدث نتج عن خلل طفيف في نسج المادة النخاعية في تلافيف الدماغ وهي مصدر جميع الاعمال والحركات . واسأل علماء البسيكولوجيا فيؤكدوا لك ان الاختلاف بين عقل النساء واكبر المجرمات ليس سوى اهتزاز لطيف في تلافيف الدماغ ايضاً

وقفت اتأمل فيهما

كانت ريا جالسة بهدوء وسكون وقد حوّطت ركبتيها بذراعيها فالفت منهما شبه سلّة القت راسها فيها وهي لا تلتفت يمنةً ولا يسرةً . اما سكينة فشعرت بقدوم زائر جديد وقد خامرتها على ما تخيلتُ رغبة شديدة في ان تظهر احتقاراً للحياة وعدم اهتمام للمتطفل الذي جاء ليراها . لكنها لم تستطع الامتناع عن حب الاستكشاف فرفعت رأسها قليلاً فابصرتُ عينين سوداوين تتحركان كجناحي الطائر وقد اشتعلت فيهما حدة مخيفة فظهرتا كانهما بركان يقذف ناراً وكبريتاً وهما غارقتان في وجه طويل كانهما تتحفزان للوثوب منهُ او كانهما كمنتا تحت جبين عريض كصفيحة من الفولاذ غارت فيها دقات مطرقة الحداد فلا يبصر المتفرس فيها سوى غضون وتجاويف كانها مغائر تعشش فيها الآثام والمفاسد . وقد انتصبت اذناها تشهدان امام السماء والارض بما حاك ذلك الدماغ من الافكار الوحشية . وكانت شفتاها متلاصقتين دليل العزم القاطع الاكيد والثبات على الاستمرار فيما يجول في ذلك الرأس الذي سقط منهُ حبلان من شعرها الاسود الطويل يخالهما المتأمل كانهما الحبل الذي شنقت بهِ سكينة ارثها البشري السماوي الذي يرثهُ ابناء الارض من ابناء السماء

يا لها من تجاويف عميقة مخيفة مرعبة تتقاطع وسط ذلك الوجه النحاسي القاتم

كانها اودية ومجار تسيل فيها جداول من الشرور والآثام والمعاصي

شعرت بنفسي تتراجع الى الوراء متذعرة من ذلك المنظر المخيف وقد طارت افكاري على اجنحة التصورات في فضاء تلك الغرفة المظلمة التي تظلل ريا وسكينة. شعرت بارواح النساء التاعسات اللواتي ذهبن ضحية قطعة من الحلى المموهة او خلخال من الذهب الكاذب. وقد تخيلت نفسي اشاهد ارواح عائم وفردوس وحجازية لاني كنت ارى سكينة ترتعش من حين الى آخر وترفع نظرها الى الفضاء او تلتفت فجأة الى الوراء كانها تشاهد من تخافهُ او تحذر منهُ

وقفت افكر في جرائم ريا وسكينة وفي الوف الارواح التي زهقت في خلال الحرب الاخيرة ولا من يحاكم الذين ازهقوها وانزلوا بالبشر اعظم الويلات. كم في الناس من مثل ريا وسكينة لا يدري بهم الناس. نحن لا نعرف من المجرمين الاَّ الذين يقعون في قبضة القضاء وكثيراً ما تنسى الطبيعة ايضاً وهي اقسى بكثير من ريا وسكينه. ان جميع الجرائم التي يسجن الناس ويشنقون فيها مما يجترحهُ واحد منذ آخر هي عين الاعمال التي تفعلها الطبيعة كل يوم وكل ساعة ونحن نتعلم منها. فقبل ان نشرع الجرائم ونلاشي مصدرها من البشر علينا ان نحارب الطبيعة ونلاشي اصل الجرائم منها. ان مخربات الطبيعة تجبرنا على ان نكون معها في حرب دائمة للاحتفاظ بكياننا ولو عدّ الاعتداء على الهيئة الاجتماعية كالاعتداء على الفرد لامسى اعظم رجال الارض كنابليون وفردريك من اكبر المجرمين. ولكن قوانين البشر لا تقول بذلك بل تعدهم من الابطال. ومن الغلط الفادح ان نظن ان المرأة التي تعتدي على القانون المعروف بقانون الجرائم هي صنف خصوصي من البشر او ان بين المجرم وبين ابناء جنسهِ فرقاً ما في المزايا العقلية والجسدية. ان الاحصاءات الطبية في السجون تدل دلالة واضحة على انهُ لا فرق في القوى العقلية الجسدية بين معدل المجرمين وبين معدل سائر الناس انما الفرق الحقيقي الواضح بين المجرم وسواهُ هو في الوسط الذي ينشأ ويعيش فيهِ. وقد سئل قاضٍ انكليزي عن طبيعة المجرمين الذين يمرون امامهُ فاجاب « انهم كبقية الناس تماماً وكثيراً ما يخطر لي انهُ لولا بعض الاحوال الحاضرة لكان من الممكن ان اكون انا واكبر المجرمين كلٌّ منا في مكان الاخر »

وقد يختلف نوع الجريمة والدافع اليها كما في جرائم ريا وسكينة لكن الاسباب التي تدعو اليها من الكسل والبطالة والغضب والكره والانتقام جميعها صفات تكون منذ الطفولية في الفقراء والاغنياء في المتعلمين والجهلاء في قلوب افضل النساء كما في قلب ريا وسكينة انما هاتان المرأتان وجدتا في احوال تمت فيها بذور الجريمة وشجعتهما على الاقدام على الشر فقد كانت عواطفهما وحواسهما تتقلص الى حد انهما اصبحتا لا تجدان في الجريمة شيئاً غير عادي . وكم في النفوس البشرية من جرائم كامنة مستترة تحتاج الى شعلة لتظهر

ان ريا وسكينة ولدتا مجرمتين بالطبيعة فاجتمعتا وتعارفتا وعاشتا معاً عيشة كسل وبطالة ثم اخذتا تسقطان معاً ببطء في منحدر الانحطاط — حتى اذا جاءت ساعة الاحتياج الشديد ولم يكن في الجيب ما يملأ معدتيهما الفارغتين او يسد شهوة تلتهب في دماغيهما — برزت لهما الجريمة بهيئة حادث بسيط وليس في النفس كره طبيعي للشر او بغض اكتسابي له او واخز من الضمير الديني الذي مات منهما منذ تعارفتا وتعاشرتا — لذلك قامت كل منهما بنصيبها في ارتكاب الجريمة كما هو معلوم . اما اشتراك الرجال الذين ساعدوهما فناتج عن تسلط ريا وسكينة عليهم فالرجل منذ ابتداء الاجيال آلة عمياء في يد المرأة رغم انهُ القوي المستبد وانها الضعيفة الخاضعة

تقدمت الى ريا اريد محادثتها فلم تحفل بي . اما سكينة فضحكت من جهلي وسألتني ماذا اريد

ريا بكت حين صدور الحكم عليها بالاعدام . وبكاؤها دليل على ان الروح السامية التي اختفت فيها كل زمن ارتكاب الجرائم قد استيقظت في تلك الساعة الرهيبة . اما سكينة فكانت تضحك كما تضحك الآن وقد اوردت الحتف لفريستها وهي كما وصفتها رفيقتها ريا تشعر براحة ولذة واطمئنان يدفعها الى الاقدام على سلسلة من الجرائم الجديدة . ولما سألتها اين اخفت قلبها البشري وعواطفها النسائية حين خنقت صديقتها فردوس اجابت بتهكم بما مفادهُ

ان زهرة شباب العالم تموت وتذوي في الحرب في سبيل مطامع فرد او امة فهل من الكبائر خنق امرأة لا نفع من حياتها ولا غاية من وجودها ؟

وسألتها ألم تخف من نتائج جرائمها اذا فضح امرها فقالت ما مفادهُ

لقد بكّتني ضميري بعد اول جريمة ارتكبتها فخفت خوفاً شديداً لكنهُ خطر لي حالاً انهم لا يعدمون النساء فقلت : اذا عرف امري حكم عليّ بالسجن ثلاثين سنة وانا الآن في الخامسة والعشرين فاخرج بعد انتهاء الحكم وانا لشيطة قوية . قلت لسكينة بصوت خافت :

ان موكب النساء المجرمات سيمر امام الله العظيم يوم الدينونة الرهيب وستكونين انت وريا وسط ذلك الجمهور . وستركع كل مجرمة امام الخالق الرحيم قائلة « اغفر لي يا رب فالحب دفعني الى الجريمة » « اغفر لي يا رب فالغيرة دفعتني الى القتل » . اما انت وريا — انتما اللتين اتخذتما القتل حرفة تعتاشان منها فسوف لا تجدان كلاماً ولن تجدا من ربكما رحمة وغفراناً

بكت ريا — اما سكينة فاستغرقت في الضحك وتمتمت كلاماً عرفت انهُ شتائم مؤلمة جارحة فتركتها وخرجت بنفس مرة الى خارج السجن

***

وجدتني في رأس الشارع الطويل الذي ينتهي عند سجن ريا وسكينة فوقفت والعرق يتصبب من جبيني من شدة رطوبة الهواء وحرارة الضمير . التفت الى امامي الى زاوية متسعة فابصرت رهطاً من صبيان الازقة يلعبون وبينهم فتاتان صغيرتان لم تتجاوز الكبيرة منهما الثانية عشرة من العمر

كانت احداهما تخاصم رفيقاً لها متشرداً مثلها وقد غرست اظافرها في عنقهِ وهي تقهقه وتصيح مسرورة مبتهجة والولد يحاول ان يلفّ شعرها على يدهِ فلا يستطيع لانها اقوى منهُ

رأتني تلك الابنة واقفاً عن بعد فأدركت بفطرتها انني غريب وقد أحسن اليها . والرحمة في نظر الفقراء قد تجد سبيلاً الى قلب الغريب لان الفقراء غرباء حيث وجدوا . افلتت من ذراع رفيقتها وجمعت ثوبها الطويل الممزق وقد كثرت رقعهُ حتى لا يستطيع الناظر اليهِ ان يعرف لونهُ الاصلي ثم مشت بأدب وصدوء وقد اطرقت بعينيها الى الارض كأنما هي غير الفتاة التي رأيتها تقهقه وتصيح منذ هنيهة . واقتربت مني ومدت يدها قائلة تعريفه يا افندي :

تفرّست في وجه هذه البنية التي تطوف الشوارع وتنام في زواياها وهي بلا اهل ولا اقارب ولا بيت ولا وطن . وما اكثر عدد هؤلاء في مصر وقفت امامي تقلب عينيها السوداوين الواسعتين كأنها تأمر يدي لتمتد الى جيبي . لكني ما احدقت متفرساً في وجهها حتى شعرت بارتعاش في جسمي — اللهمّ ! ما اشد التشابه بين هذه الابنة وبين سكينة — هذه هي سكينة — هذه هي سكينة المستقبل وتلك هي رفيقتها ريا — وكانت رفيقتها قد اخذت في هذه الفترة القليلة مكانها في السراك فلطمت ولداً وتصارعت مع آخر ومزقت ثوب ثالث ثم اسرعت تحوي او نحو رفيقتها لتشترك معها وركض وراءها الولد الصغير الذي مزقت ثوبهُ وهو يلعن ويلطم ويتهدد جنس النساء جميعهُ باطراب والانقراض

هذه هي ريا المستقبل وهذه هي سكينة واولئك هم عبد العال ومحمد وحسب الله وبقية رجال العصابة — هؤلاء هم مجرمو الغد وهذه الشوارع القذرة هي المدارس التي تتكفل باخراجهم مجرمين الى الهيئة الاجتماعية . ايها الحكام والقضاة والمشرعون والمصلحون الذين ادنتم ريا وسكينة الامس تعالوا وانظروا ريا وسكينة الغد . من هو القاضي العادل الذي سيحكم على هذه الفتاة التاعسة التي تجوب الشوارع اليوم اذا ارتكبت جريمة القتل والخنق غداً . هذا هو عبد العال الذي يتمرن اليوم ليكون مجرماً سفاكاً وذلك الولد الصغير الذي ابصرهُ آتياً من المدرسة في طرف الشارع الاخر هو القاضي الذي سيحكم عليهِ بالسجن والاعدام . هذا هو ابن الشارع والشقاء وذاك ابن المدرسة والعلم ومع ذلك فنحن نتطلب العدل والرحمة ولا نعدل ولا نرحم بعضنا بعضاً

ان الحكومة قد انفقت الاموال الطائلة في سبيل التحقيق عن عصابة ريا وسكينة — وقد انفقت المال الكثير ايضاً في سبيل محاكمة العصابة وصرفت رواتب القضاة والمأمورين والموظفين من ملكيين وعسكريين وقد انفقت بسخاء على اعاشة العصابة باجمعها ما يقارب السنة اثناء وجودها في السجن — لكنها لا تنفق شيئاً في سبيل هؤلاء الاطفال لكي لا يخرج منهم في الغد ريا وسكينة وحسب الله وعبد العال

توفيق مفرّج